

إعادة النظر في نهاية العالم إيتيل عدنان والأفق

رنا بركات، فلسطين

ترجمة: عبد الرحيم الشيخ

تتدلى الشمس فوق رؤوسنا، نؤرّخ الأيام بوجودها، والليالي بغيابها. إنها صانعة الأساطير، لكن ماذا أصبحت الشمس في زمن القيامة؟ كيف نهتدي [إلى الطريق] حين تنفجر الشمس وتترك شظاياها في السماء وأرضاً محروقة على الأرض؟ هل انقلبت هذه الشمس الأسطورية الجميلة علينا؟ هل هي، والسماء التي تتخذها بيتاً، عازمتان على إفنائنا؟ كيف بوسعنا أن نفكر حين يخوننا كل ما فكرنا به؟ وإذا كان التفكير هو عالم المثقفية، فإن عزاءنا الوحيد، وسط هذا الجنون المدبر، هو أن نفكر مع الشعراء.

متجاوزة مفارقة الترميم وسط الانقراض، فإن شمس إيتيل عدنان ليست محض استعارة. ففي ذروتها، تبدو الخطط التي وضعت منذ قرن من الزمن للقضاء على الوجود الفلسطيني، كما كانت في أولها: عديمة الشفقة وغير قابلة للتخيل في عنفيتها. لكنها حقيقية، والوحوش حقيقية. وبينما تستمر المحاولة الحثيثة لإبادة غزة وفلسطين بلا هوادة، تسكننا هذه الأسئلة. إن هذه الأفكار، ومساءلتنا لإنسانية عالم ليس لنا، ليست جديدة على فلسطين. فقد حملنا هذه الأسئلة في أجسادنا، وحفرناها على قبورنا... جيلاً فجيل.

لقد منحت إيتيل عدنان العالم مقولة شعرية لم تكن يوماً أكثر ملاءمة مما هي عليه الآن. لا نبوءة ولا تاريخاً، كتبت عمّا نحن فيه الآن، وعمّا كنا فيه منذ عقود وقرون خلت: كتبت قراءة قيامية لنهاية عوالمنا وحيواتنا التي فيها. في القيامة العربية، تمنحنا إيتيل عدنان بصيرة لرؤية جنون عنف لا يتوقّف، أو لعلّها تمنحنا وسيلة للتفكير فيما يتجاوز وحشية العنف.¹ إنها تروي لنا حكايات عن نهاية هذا العالم الهمجي، وترسم لنا خطاطة لرحلة نحو عالم آخر. وفي هذا، كما في غيره، فإن فلسطين هي خلق العالم.

مكتوبة ومتخيّلة قبل جيل مضى، في حرب أخرى/ هي الحرب ذاتها، وفي زمنٍ آخر/ هو الزمن ذاته لسماء تتفجّر... القيامة العربية هي ممارسة للرعب والأمل. أعود إلى إيتيل عدنان اليوم لا بحثاً عن السلوان، ولا إنقاذاً للإحساس بالتأكيد، بل بحثاً عن مخرج، روحيّ ونفسيّ، لاجتراح طريق نحو عالمٍ آخر... ممكن. فعبّر شعريّة الصور والكلمات، تلتقط إيتيل عدنان هذا الزمن أو تُشرّحه. وفي بحثي الخاص عن كلمات تصف هذه الفوضى المنظّمة، وعن مهرّب

من سجن هذا الحاضر، أخاف، لكنني أتبع شمس إيتيل عدنان في القيامة العربية. لسنا محض شهود على الفاجعة الجديسة في كلماتها ورموزها وضربات فرشاتها. إننا في هذا معاً، مع الشمس وانفجارات الشمس، ومع الأمل في القمر الذي سيكون دليلنا بعد أن تدمر الشمس نفسها.

II

شمس طائشة، عاشقة للبحر
قمر أخضر مثل ورقة متجمدة تحت انهيار نجمة شمسية
أيتها الشمس التي تعذب عين العربي في سجون العدو! شمس صمّت أصفر.²

في القيامة، فلسطين ليست استثناءً: إنها مركز الكون. ونحن نكافح لتخيّل هذا العالم المختلف، نكافح في هذا العالم القاسي، ونعرف أن البقاء غير مضمون وغير ممكن تخيُّله تماماً. لقد حوّلت الحرب غزة إلى حقول قتل يسود فيها القتل والجوع على شعب بأكمله. إذا كان هذا العالم القديم القاسي يقترب من ذروة توحش نهايته، فإن نهاية العالم موسومة بانفجارات تستهدف كلّ ما هو فلسطيني، من الناس والبنية التحتية، والماضي والحاضر، والعقول والأجساد. وإذا امتلأت السماء بكل أنواع الأسلحة التي تُحقّق ما كان بالكاد يمكن تخيُّله في أكثر الكوابيس سوداوية، فإلى أين نولّي وجوهنا بحثاً عن الأمل بعالم جديد؟ هل فلسطين هي مقدمة إلى وحشية جديدة لا يمكن تصوّر خُلكتها عازمة على دفننا جميعاً؟ أم أنها نقطة تحوّل إلى عالم جديد؟ إن هذا العالم الحالي يحترق: السماء تنهار، وانفجارات الشمس أحرقت الأرض في واقع لم يكن في وسع الشعراء، حتى، تخيُّله. فالشعراء، كما بيّنت إيتيل عدنان وجسّدت، يحملون المفاتيح والأعباء، في أصدااء نهاية العالم:

"لأنّ الشعراء يموتون
ولا يستسلمون،
لأنّهم ينطقون بالأمل
ولا يعلّقون كلماتهم
قلائد من اللؤلؤ،
لأنّ الشعراء يرفضون الموت،
ويحملون الأمل على ظهورهم،
ويتنقّلون من بابٍ إلى باب
مثلما يتنقّل النحل من زهرةٍ إلى زهرة
ليتركوا رسائل التحدي
في قلوب الناس."³

إن القيامة العربية لإيتيل عدنان ليست استفزازاً ولا تأملاً وحسب، بل هي أكثر من ذلك بكثير. ففي هذه القصيدة الطويلة، في هذه السلسلة الملحمية من القصائد، وصفت إيتيل عدنان واقعنا الذي لا روح فيه والذي لا يمكن أن يحتله سوى الوحوش الدموية. ولكننا إن تتبعنا شعريتها، ومزيجها الخاص من الكلمات والصور، فإنها تمنحنا بوصلة بالخيال وعبر الخيال طريقاً للخروج، وطريقاً إلى عالم آخر... إلى علم خلق العالم.

V

"جنوني الأصفر،

طين أخضر في عروقي،

شمس متكلسة، رادارٌ جُنْ،

أصفر أخضر أحمر بنفسجي،

رادارٌ كونيٌّ، رجلٌ شمسيٌّ عارٍ مجنونٌ،

شمس زرقاء في سماءٍ سوداء، شمس صفراء في جذرٍ أسود،

امرأة شمسية، امرأة قمرية، شمس أنثى.⁴

إذا تأملنا الشمس بما يكفي، هل نشهد الانفجار؟ هل ستنفجر؟ أم أننا سننفجر معها؟ في اللغة العربية لدينا مفردة للعنف الاستعماري الاستيطاني، هي: النكبة. هذه النكبة ليست جديدة، وقد كانت على الدوام تستهدف إفناءنا. بعد جيل من النكبة المستمرة، أضفت إيتيل عدنان صوتها إلى السجل التاريخي لتوثيق هذا العنف، واصفة إياه بالقيامة العربية. وكما ترشدنا شيرين صيقلبي بعد جيل [آخر]، إلى جرد الكوارث، تذكّرنا على نحو شعري أن "الكارثة ليست في المستقبل، و[أن] النكبة ليست في الماضي. إن الذي لم يتوقّف أبداً، يبدأ من جديد ونحن نواجه درساً مؤداه أن الأمور يمكن دائماً أن تكون أسوء... فلسطين ليست مختبراً. إنها ليست موقعاً للتعاطف. ولا يمكن اختزالها إلى مشكلة عقيمة. فلسطين هي مكان وفرة، وفرة دروس حول الديمومة في الزمن الدائري والدوّار للحاضر."

5

لقد بدأت صيقلبي كتابة جرد في خضم الإبادة الجماعية، جرد "عصر الكارثة"، في كل ملاحظة تحريرية لـ مجلة الدراسات الفلسطينية [بالإنجليزية]، حيث خلقت أرسيفاً حياً لنهاية العالم، وعلمتنا كيف نواجه تاريخ الإبادة الجماعية.⁶ فيما تسجل صيقلبي تفاصيل العنف الذي لا يوصف، تروي لنا حكايات شعبنا الذي يواجه عالماً متوحشاً يقدّم موته الخاص على قدّ عظام الشعب الفلسطيني ودمائه، الشعب الذي لن يُزال. وفي تصاديفها مع إيتيل عدنان، يبدو أن صيقلبي تعرف أن أمل النجاة لا يقوم على هذا العالم، بل بأكثر من ذلك على ما قدّمته إيتيل عدنان: شعب سيواجه الشمس المتفجرة.

VII

"أمسكتُ الشمس من ذيلها، وألقيتها في النهر. انفجار... بووم."⁷

الأرقام هي عبء الشاهد. إن عدَّ الموتى يتزامن مع عدِّ الوحدات العسكرية التي يبدو أن لها هدفاً واحداً فقط، هو: الإبادة. لا أكثر ولا أقل، إذ الإبادة هي كل شيء. في غزة 2025، في شهور الربيع حيث من المفترض أن تتفتح الأزهار حين تذكّرنا الطبيعة بالأمل، استبدلت آلات الموت بالأزهار، وألقت حقول القتل الظلّ الوحيد على البر والبحر. الشمس المتفجرة تخلّت عن الفلسطينيين في غزة. آلات القتل متوحشة وبلا قلب. هل يفكر الوحوش الذين خلف هذه الآلات فيما ستفعله هذه المجازر المروّعة والدمار بهم أيضاً؟

إن وقتنا ثمين، لا متّسع لدينا لمثل هذه الأسئلة. وإذا كانت نهاية العالم قد شغلني عامين، فقد شغلت الفلسطينيين سبعة وسبعين عاماً. إن آلات الموت التي تعطلّ إيقاعات الحياة تخلق تكراراً، إعادة، حلقة مفرغة. وقد أصبح التنفس نفسه سلعة لم نعد قادرين على نيلها. لكننا نستمر في التنفس. كيف يمكننا أن نكتب غير ذلك؟ لكن إيتيل عدنان كتبت على أي حال: "أنت بحاجة إلى تحرير الأشياء، إلى ترتيبها، إلى استبعاد أمور غير أساسية لتوفير متّسع في رأسك، حتى تتمكن صورة من أن تحلّ مكانها... إنّنا نحتاج إلى الشعر وسط هذه الفوضى والثرثرة."⁸ عند نهاية العالم، حين نواجهه بالواقع المادي للوحوش من حولنا، يجب أن نفكر فيما يعنيه أن نكون جزءاً من وشهوداً على "نهاية عالم الشمس" هذه. في لحظات عابرة من الصفاء، أقيس قرب السماء المتهالكة عبر الأفق المشترك لغزة: أفق الدمار وأفق الأمل.

V

"أحصيت شمساً بعد أخرى فغطّيت ساقاي بالنمل،

أحصيت النمل فأعمت عينيّ الشموس... فلسطين بلا فلسطين"⁹

لم تمنحنا إيتيل عدنان الشعارات التي طالما تعلّمنا أننا بحاجة إليها لمواجهة حروب الوحوش، بل تعلّمنا أن مهمتنا لم تكن قطّ مواجهة الوحوش لإثبات إنسانيتنا. إنها تدعنا نتوقّف قليلاً، تطلب منّا أن نتوقّف، ولعلها تطالبنا بأن نتوقّف مع الألم، وأن نتوقّف مع الخذلان، وأن نتوقّف مع ارتباك أن نكون هدف الحرب، وأن نتوقّف مع ارتباك تدنيّ قيمتنا واستبعادنا تماماً عن سجلّ الإنسانية في هذا العالم القاسي، حيث تصبح حرب الإبادة حتمية شبه تاريخية. لا تترك إيتيل عدنان مجالاً لتعتيم هذه الحقيقة، فسرّيتها واضحة، وهذا العنف ليس جديداً... لقد امتدّت قرون استتعاره الوحشية فوق رؤوس الشعوب المضطّعدة وأجسادها لقرون خلت.

XX

"تنفجر شمس قيامية. أسمع طقطقة عظام."¹⁰

وهكذا، بحلول المقطوعة العشرين من القيامة العربية وفي الشهر العشرين من هذه الحلقة من الإبادة الجماعية، تنفجر الشمس. وهكذا... تنفجر الشمس. الشمس مبدعة وكاذبة، متسولة وسارقة، ناقدة ومنحرفة، ظلمة وظلم. لقد أضحت [الشمس] شريكة لهذا العالم القاسي ومحركاً ستأخذ انفجاراته هذا العالم ومملكة الوحوش إلى النهاية. الشمس هي حمالة العوالم.

XXIII

"الشمس شقّت الجلود، والبطون، والأدمغة،

والأشجار! حتى حبيبات الرمل انفجرت

انقلبت بيروت إلى قلب الشمس، وأبادها سحرها."¹¹

في فلسطين 2025، التفكير محموم، إذ تتمازج مقاطع الشعر في سلسلة كلمات تبدو مبهمّة من هذا الجنون المتفجّر وعنه. في "دوامة الموت"،¹² و"كوكبات الحزن"،¹³ الشمس القاسية "سلكت طريق الشرّ".¹⁴ الشمس هي الحاضر المتوحّش المولود من الماضي المتوحّش لـ "هدف آخر غير أن تكون كفنًا".¹⁵ مع إيتيل عدنان، نصعد إلى "أعلى برج لنحدّق في الشمس"،¹⁶ لنواجهها ونواجه اندفاعها نحو الجنون: "جاء الشاعر بكلمات عمياء وجيوب فارغة".¹⁷ لقد خذلتنا الشمس أو لعلّها حقّقت مهمّتها الأصلية في محاولة تدميرنا، وعلى الرغم من ذلك، فـ "بين السماء والأرض، يبحر ثلاثة فلسطينيين مثل سمك بطيء: نصفهم أرضي، ونصفهم سماوي، يطوفون حول أمنا الأرض".¹⁸ فيما "حرقّت الشمس شفاه الشعراء"،¹⁹ استمرت الكلمات واستمر الفلسطينيون [في] السباحة والطيران.

LIX

"حين تُنهي الشمس طريقها النهائي
سوف تلتهمُ النارُ الحيوانَ والنباتَ والحجرَ
سوف تلتهمُ النارُ النارَ ودائرَتها الكاملة
وحين تحترق الدائرة الكاملة لا يتجلى أي ملائكةٍ. قِفْ.
سوف تطفئ الشمسُ الآلهةَ والملائكةَ والناسَ
وسوف تطفئ ذاتها بين بناتها
مادة الروح سوف تكون الليل،
في الليل، في الليل، سنجد المعرفةَ والحبَّ، والسلام."²⁰

وهكذا، اليأس وفي للشمس ومعها... تعيش إيتيل عدنان مع الشمس في الوعد، وفي البؤس، وفي الموت، وفي الحب... وفي الخذلان، وأخيراً، تعيش متحررة من الجاذبية في بحر الكون وقبضة الشمس — الحرية التي لا تنبثق إلا من نهاية العالم القاسي وانفجار الشمس... إيتيل عدنان تخبرنا أن لدينا القمر... القمر لم يعد يقبض علينا لكنه يقبضنا ونحن نعلو. في "المعرفة"، نعلم أن العنف الذي يمنع التفكير سينفجر إلى الداخل بانفجار الشمس. وفي "الحب"، نعلم أننا كنا مع الحب طوال الوقت، وأن الحب هو "السلام" بعد القيامة

الإحالات

[1] Etel Adnan, *The Arab Apocalypse* (Sausalito: Post-Apollo Press, 1989).

يرجى ملاحظة أن أرقام الصفحات في الإحالات إلى عمل إيتيل عدنان إنما تخص هذه الطبعة من كتابها.

[2] Ibid., 9.

[3] Etel Adnan, "It Was Beirut, All Over Again," *Middle East Report*, 162 (1990), accessed 9 October 2025.

<https://merip.org/199001/it-was-beirut-all-over-again/>

[4] Adnan, *The Arab Apocalypse*, op. cit., 15.

[5] Sherene Seikaly, "Nakba in the Age of Catastrophe," *Jadaliyya*, 15 May 2023, accessed 9 October 2025.

<https://www.jadaliyya.com/Details/45037>.

[6] Sherene Seikaly, "From the Editor," *Journal of Palestine Studies*, Vol. 53, No. 4 (2024): 1–7; Sherene Seikaly, "From the Editor," *Journal of Palestine Studies*, Vol. 53, No. 3 (2024): 1–10; Sherene Seikaly, "From the Editor." *Journal of Palestine Studies*, Vol. 53, No. 2 (2024): 1–8; Sherene Seikaly, "From the Editor." *Journal of Palestine Studies*, Vol. 53, No. 1 (2024): 1–6.

[7] Adnan, *The Arab Apocalypse*, op. cit., 20.

[8] Laure Adler, "Beginning with Color: An Interview with Etel Adnan," *The Paris Review*, 4 October 2023, accessed 9 October 2025.

<https://www.theparisreview.org/blog/202304/10//beginning-with-color-an-interview-with-etel-adnan/>.

[9] Adnan, *The Arab Apocalypse*, op. cit., 22.

[10] Ibid., 39.

[11] Ibid., 42.

[12] Ibid., 46.

[13] Ibid., 13

[14] Ibid., 47.

[15] Ibid., 58.

[16] Ibid., 62.

[17] Ibid., 64.

[18] Ibid., 71.

[19] Ibid., 76

[20] Ibid., 78.